

ابتعد كأنك سفينة

الكتاب: ابتعد كأنك سفينة

المؤلف: عيسى الشيخ حسن

شعر

الناشر:

جدار للثقافة والنشر | مالمو، الإسكندرية

publish@jidar.net | www.jidar.net

الطبعة الأولى **2026**

الترقيم الدولي: 978-1-291-55227-0

التصميم الداخلي والغلاف: جدار للحلول المستدامة

Leave Like a Ship

Author: **Issa Al Sheikh Hasan**

Poetry

Publisher: Jidar for Culture & Publishing

Interior and Cover Design: Jidar for Sustainable Solutions.

ISBN: 978-1-291-55227-0

عيسى الشيخ حسن

ابتعد كأنك سفينة

شِعر

المحتوى

الإهداء

إلى أولادي: لن نشيب.. سنصبغ شعرنا دائمًا بالأمل الأسود.

أوّل فتوح الكتاب

منذ وقت طويل لم يعد يزورني الأمل، أنا الراعي التائه في البريّة، لا قطيع، ولا مرعى، ولا مرياع أهتدي بجرســـه إلى الضوء، ولا حتى كلب يمنحني نباحه أُنسًا عابرًا .

لا أجد أملًا يأخذني في غفوة إلى تلك الســـنين، فأحلم من جديد بمرعى أخضـــر. في الليلة الفائتة جاءتني حبّابتي في المنام وقالت لي: كلّ هذا الأمل، وما تشوف؟ انت طمّاع !

باب الرسائل

إلى عبد الجبّار النفّري

وقال لي: إذا أتاك حديث النار؛ فلا تقلق، ولا تطمئنّ؛ فبعد كلّ متنٍ هامش، وبعد كلّ هامشٍ متن.

وقال لي: إذا أردت أن تعي تعاقب الأضداد، وتنافر الجهات؛ فضـــع نفســـك مكان الواتر، ثمّ مكان الموتور، ثمّ اتركهما، وامضِ إلى نارك البعيدة.

وقال لي: وراء كلّ ظاهرٍ مُضــمر؛ فلا تطمئنّ إلى ناصــح، ولا تركض وراء منادٍ، وكن مع الضــحيّة حيث كان، ومن كان، ومتى كان.

وقال لي: إذا ابتليت؛ فالبلاد المبتدأ وأنت الخبر.

وقال لي: كن معها، ولا تبكِ في ضرّائها، ولا تضحك، ولا تترك القصـيدة، ولا تهمل عصـاك، ولا قدميك، فالطريق طويل، والزاد قليل.

وقـال لي: إذا مرّوا بليلـك؛ فـامنحهم نـارك، وأطعمهم من قِدرك، وإذا غشــيك الســراب فاطمئنّ إلى صــورة الماء، وإذا دهمتك السحابة؛ فشدّ حبال خيمتك.

وقال لي: اطمئنّ إلى بؤســـك، فعمّا قليل تتعافى واو الهمزة، وتمتدّ أَلِفًا يَقِظة.

إلى فريد الدين العطار

الشجرة؛
الكائن الوحيد الذي يغسل قدميه بالنهر، وينشّف شعره بالريح

يا ربّ،
علّمني منطق الشجرة التي رأيتها في داريّا؛ جذعها يابس وكفّها أخضر.

إلى محمد هاشم

لا أحبّ الحجر
الذي يصيد عصفورين في وقت واحد
أحبّ الحجر الذي وقف عليه مائة عصفور دون خوف

- محمد هشم: ناقد مصري

إلى الخليل بن أحمد

ماتت قصيدة صغيرة في الجوار، قيل إنّه البرد، وقيل حادثة سير،

ولكنّهم تركوها على الإسفلت الأبيض

جدّي قال: لو أنّها «فعولن مفاعيلن» ما خرجت في هذا البرد. كانت يداها المُعلِّمتان في الثلج، موزونتين تمامًا، وقلت لحبّابتي: من علّم الصغيرة ذلك العَرُوض الصعب؟ حبّابتي قالت: السوريّات سبعات.

هكذا مرّ العام الفائت، والعام الذي سبقه. قصائد صغيرة تفاجئني؛ لا تبيع الكبريت، لا تختار البحر الذي تغرق فيه، لا يصفّق لها جمهور المركز الثقافي. قصائد صغيرة في مخيّم بعيد، أو شارعٍ معبّد، ولكنّ الثلج يحبّ الشعر، والسيارات المسرعة أيضًا.

منذ وقت، تهرب القصائد من دفتري، وكأنّ الثلج الذي ذاب ظلّ في البيت، في قدر صغيرة، فوق مدفأة، لم يسمّع لي: «يا ثلجُ قد ذكّرتني أمّي».

إلى فرانز كافكا

لم يكن أحدب، الرجل العابر بظهرٍ منحنٍ، وفوقه كيس خام.

كان جملًا، بسنامٍ صغير، كنت أرسمه، دون أن أرسم الشارع.

الشارع صحراء
الحيّ صحراء
المدينة صحراء
حين يعود إلى البيت، يرمي سنامه بهدوء

الرجل العابر يدخل دارًا
بابها لم يكن عاليًا

إلى رياض الصالح الحسين

أصابعها، حبّات عنب شامي، حين لوّحت، كان المساء مخمورًا

أصابعها، أعواد كبريت، هل علمت الآن لماذا اشتعل الأفق حين لوّحت؟

أصابعها، الأسماء الخمسة. قالت المعلمة الصغيرة في ذاك المساء، حين اقترضت الحرب إصبعين من يد طالبها الصغير، كي تشطب بعينين دامعتين، فوق: «أبٌ- أخٌ»

أصابعها، خمسة أطفال، يسألون عن أمّهم في المساء

القصف أليف

الليل أليف

الأسماء التي كانت خمسة.. أليفة

وحدها الأصابع؛ في ذلك المساء تقوّست خيمةً صغيرة لـ «أطفال ورا أطفال»، في كابوس الشرق الطويل.

إلى جلال الدين الرومي

بهدوء ومرح
ينفخ الولد في طلقة الرصاص الفارغة
ليظفر بلحن حزين
هو لا يدري
أن ثمن هذا اللحن ألف مجزرة
دفعناها في سنوات كثيرة

إلى أبي صخر الهذلي

الأصابع التي تحدّت الشمس
تركت شجرة صغيرة من الظلّ على جدار البيت
عشرين غصناً من ظلال وضوء
كحجارة البيانو

الأصابع التي تصدّت للريح
تركت عشرة نايات تغني للجدار ذاته

إلى جدّي الحاجّ عيسى

في باب الكلمة أوقفني وقال لي: حين تكتب لصديق فانزع ضلعًا، ابرهِ جيّدًا، حرّره من الدم والفراق.

حين تكتب لامرأة، من ترابٍ ولبن، فأضف إلى الضلع ماء العين، ثمّ حرّر دمعتك. لكن حين تكتب لأمّك فعُد إلى الطفل الفطيم، الطفل الذي غدا كهلًا فجأةً حين وضعوا على وطنه كلّ المرارات كي ينسى ثم أغمد القلم في صدرك.

ستصلك حتمًا ندهتها: يا وليدي.

إلى عبد الكافي الأحمد

في البلاد التي لا عمّ لنا فيها.. ولا خال، أقرعُ بابًا وديعًا، ظلّ هناك

وأسمع من يقول: حيّا الله.

ولو انّهم فتحوا لدخلت، ولو انّهم تلقّوني لعانقتهم، ولكنّي سمعت، أظنّني سمعت، أجزم أنّني سمعت.. واللهِ سمعت: حيّا الله.

باب وديع، لا يشي «بدوّاسة الليل»، ولا بغريب في بلادٍ لا عمَّ فيها.. ولا خال

بابٌ مُطْمَّئِنٌ، متطامِنٌ.

يسأله الهواء عن الوقت، والمطر عن الربيع، ويسأله غريب، في بلادٍ لا عمّ له فيها.. ولا خال، عن ساكنين كانوا هنا، قالوا له حيّا الله

بـابٌ وادعٌ، مســتودَعٌ، لا حربَ تعلّمـه الهروب، ولا زلزالَ يأخذه إلى ملجأ، ولا الغريب في البلاد التي لا عمّ لنا فيها.. ولا خال، يغلقه بهدوء.

باب مفتوح، بيت الشــاعر المســقوف بالقشّ، والتفعيلات المسبقة الصنع

باب مغلق، بيت صغير، في سطر مائل، في قرية هناك
باب موارب، يخدع الغريب، في البلاد التي لا عمّ لنا فيها.. ولا خال، قال: حيّا الله

والقمر الذي رســمناه يا ليلى، كان يكفي لليلة حزن واحدة، والشــتاء الذي بردناه، كان يكفي لكتابة رواية طويلة. في البلاد التي لا عمّ لنا فيها.. ولا خال

إلى رسول حمز اتوف

كأنْ لم نحصد عدسًا، بأيدٍ ظلّت تلوّح للغيم والعابرين

الأصــــدقـاء غبـار، هكـذا قلـتِ لي، وأنـا أمســـح الـوقـت عن عناوين الكتب، ولكنّ اليد، التي حملت الحقيبة في الطريق إلى الشـــام ليســـت اليد التي حملت الهاتف الجوّال.. تقلّب الرسائل القصيرة

اليد ذاتها، قلتِ. ولكنّه الغبار، الغبار الذي تذرّه مثل الملح فوق طبيخٍ باهت.. اليد ذاتها، واللّهِ، أكّدت لي

لو أنّ الأصـدقاء أضـمومة عدس في نيسـان، لما احتجتُ كلّ هذه الأيدي.

اليد التي تفقّدت أصــابعها، حين لمســتُ بطيخةً حمراء، في صــباح حزيران البارد، اليد التي أمســكت الجلاء المدرســي،

واليد التي ظلّت في جيبي، صيفًا كاملًا، اليد التي جرّت رسن حصانٍ خجول.

اليد ذاتها؛ ولكنّك وزّعت الغبار، فوق متاهة بطول هذا العمر.

اليد ذاتها.. بالساعة الصغيرة، التي تركها تطعيم الجدري على ساعدي، اليد التي أحمل بها كلّ يوم.. الخبز والجريدة والشّجار مع الحياة والأسئلة.

لن أضع يدي على كتفِ صديق، هكذا يقول المنطق. سيذرونا الموت في جهات مختلفة؛ فمن يقنع كتاب التاريخ السميك أن ذرّات التبن المتناثرة، كانت عودًا أخضر، في يد فتيات صغيرات؟ وأنّنا كنّا أحاديث، في فم حياةٍ خضراء؟

لا تضع حصانًا في حقل العدس
لا تضع جريدةً في يد الغريب
لا تضع الأصدقاء في أغنية قديمة
لا تضع الغبار المناسب
في كلّ هذا الفراغ.

إلى ماركيز

باب بيتنا هناك
الجرح الأبدي الذي سال منه الطحين والملح
ظلّ ينزف وينزف
سال أبي ونحن صغار
ثمّ سلنا وراءه
واحدًا واحدًا

وحدها أمّي هناك
تضمّد جرح الدار
تفتحه في الصباح للشمس
وتغلقه في المساء لروحها
كي ننام

إلى ثريّا عيسى الأحمد

ثمّ تخيّلي أنّي بكيت
وتركت البيت
وسِحْت مع الغزلان في البراري
هل كانوا سيغلقون الدفتر
ويقولون «سِدَدْ بِدَدْ»؟

الأمطار تأتي وتذهب
والألم نحيف ومضطرب

لو بقيتِ حتى آخر العام؟
غدًا ستأتي سنة مخيفة
مثل معلّمة المدرسة الجديدة

في يدها عصا

سنة جديدة يا حجّة
لن نفلح الأرض هذا العام
لن نشتري علفًا للماشية
لن نزرع الرَّشاد في زاوية الحوش

تعالي إلى عام 2023
الذئاب تعبت من الحرب
ربّما نبني السيباط من جديد
ونلقي بذور «الدبشي» في أرضٍ جديدة
ربّما نتعلّل ونتذكّر حكاياتنا الصغيرة

الآن
الكتيبة ذاتها
تمشي
بخطوات متعبة وخائفة نحو العام الجديد
وأنا أخشى أن أصاب بالصداع
كي لا أقول: «يا يمّا»!

إلى نصر بن عاصم

في الغابة
لا يمكن للخروف أن يكون فاصلة بين ذئبين.
الفاصلة الآن حاجز بين بيتين

كفّا المرأة النازحة
تثرثران في وجه الريح
لكنّ النصّ الذي بينهما لم يقرأه أحد

النسر في الفضاء
علامة ترقيم جديدة
لا يعرفها العسكري على الحاجز

بين سيفين
وقف الرجل
موضحاً مفهوم القصاص

بعد القول:
رصاصتان
علامة الاستفهام
عن الهوية
صفعة مدويّة

بخوذته ليلًا
العسكري على الحاجز
علامة تعجب
مقلوبة

نقطة التفتيش
آخر الحارة المدمّرة .

باب الأحوال

بكت عيني اليُسرى

وظنّنا أنّنا نجونا؛ فركضـــنا نريد معانقة الهواء والجدران، ولكنّه صرخ بنا انتبهوا: ما زلتم على الصراط، ووقعت امرأة كانت تحضـــن طفلًا، ووقع رجل بعقالٍ، ووقع خلقٌ كثير، فانتبهنا وخفّفنا الخطو، ولبثنا ساعةً أو بعض ساعة، ومرّ بنا غيم، ومرّ بنا ليل، ومرّ قمرٌ عليل، ولم يكن في الرحلة

دليـل، فقلنـا لـه يـا قمر، تجمّـل بـالـذكريـات بين الغيمـة والعتمة.

وطال الصــراط، طال، ودقّ الطريق، حتى لم يعد يتســع لقدم واحدة، وقال الكهل الذي أمامي: ليتنا نهوي ونرتاح، ولكنّ الهوامّ التي تنتظر الواقعين جعلتني أناشده: تصبّر لم يبق إلّا القليل، واســتغاثت النســاء بآبائهنّ الذين ماتوا، واســتنجدنا جميعًا بكلّ عابر، واســترينا جميعًا بكلّ عابر، وصــادقنا أعداءً، وعادينا أصــدقاء، وأومض برقٌ، ولكنّه ذاب في الظلام.

وقيل إنّ الشـمس على بعد فراسخ، ولكنّ أرجلنا ذابت على الصراط، وقلنا: لو يمنحونا بعض الوقت، وننتظر الشمس هنا، وانقشع ليل وراء ليل، ونحن على هذا الصراط لا نقع، ولا ننجو.

ولدينا أبناء صــغار يشـجعوننا من بعيد، ونحن نراضــيهم، وقال طفل لطفلٍ وهم يلعبان: غدًا ســيعبر أبي الصــراط، ويأتي لي بـ عيديّة».

أطلال خولة

وماذا لو أنّ البيت زارني!

قليلٌ عليّ؟

ســنين كثيرة طويلة وأنا أشــدّ إليه الرحال، لأقضــي تحت سقفه بضعة أيام، وأشبع من رائحة الطين التي في الجدار، والذكريات التي في الشبّاك.

ماذا عليه لو جاءني ليقضي عندي بضعة أيّام! لست طمّاعًا، أفتح الباب على حوش صغير بحبلَي غسيل، وغرف قليلة، وبوابة صغيرة مسدودة ببرميل فارغ!

على الأقل لأقف على الأطلال، لأشكره لأنه منحني آلاف الصور في فصول الطفولة والشباب والشتاء والخريف، ومرّت أكياس العدس ايضا نحو غرفة المؤونة، ومرّت إناث الماعز إلى ساقية المعدن، وزُفّ عرسان وعرائس،

ومرّت جنازة أبي
وحملت الحقيبة في الطريق إلى حلب.

يا بيت، تعال
على متن مقطورة صغيرة
الحرب انتهت،

تعال بعد المربعانيّة بقليل، سأعيد طلاء الجدار الغربي بالكلس، وأسدل الستارة على نافذتين صغيريتين

سامحني إذا رسمت على الباب الخشبي عبارة ما بخطّ الثلث

أعن ذاكرتي يا بيت، ولا تهرم، وقل لجدرانك القديمة أن تعود، وللباب القديم أن يعود، وللأحياء القدامى أن

يعودوا، وسأصبّ لهم الشاي، ولن أتذمّر إذا أمرني ضيفنا الشايب: والْ»، تعال صبّ لّي؛ ولن أتذمّر إذا طلب مني ابي شراء علبة دخان.

تعال
بجدرانك المكلّسة بالغريان
وتحزومة الدار
والبساط الباهت
والمخادّ البيضاء.

لا تأتني في الحلم، وتضحك عليّ، الأحلام الآن نادرة مثل «الطُرفة» ثمّ إنّي بتّ أنسى الأحلام، تعال شخصيًّا، وهات معك كيس البرتقال ذاته، وخبز القامشلي المخرّم، وبالنابض الذي لازم الباب الداخلي سنوات، تعال يا صديقي.

تعال يا ربيعي

يقولون إنّ الحرب انتهت، وإن البيوت القديمة ستعود إلى المدرسة، ولكنّي أريدك أنت، أريد أن ألعب «الطابة» الخضراء في المساحة الصغيرة بين البئر والدكّان، أريد أن أسجّل هدفًا، أن أملي على إخوتي الصغار نصّ إملاء غريب.

أنا أعرف أنك تستطيع أن تأتي؛ فلا تتدلّل عليّ، أرجوك، تعال مع برد العجايز، أو في ذيل شباط، اركب السيارة إلى الجنوب ولا تأبه للحواجز، ولا تطلب منّي أن أهتف: «تسقط الحواجز» أخاف أن يعتقلوا منك ضحكة أمّي يوم نجحت في أوّل مادّة لي في الجامعة، أخاف أن يشتبهوا بصرخاتنا يوم كنّا نشاهد مباراة البرازيل وإيطاليا صيف 1982، أخاف أن يكشفوا عنك سقف الكونكريت ليتحسّسوا نسبة «الخارور» في الدم، والحنين الذي في الذكريات.

لم أعد أجيد الذكريات، ولا الشعر لأكتب قصيدة قوافيها بيت أنتمي إليه، و«ليت» لم تعد تخدعني وكلمات كثيرة كلّ دمعها يفضي إلى ياء وتاء. لم أعد أقوى على حنين جيّد.

- الطرفة: أوّل الإنتاج الذي يُهدى من الحليب والخضار.
- الخارور: دلف المطر

حديثٌ مرجّم

ليس اعترافاً، ولا بياناً أنضجته الحرب، ولكنّه صوتَ أمّي البعيد: نحن بخير.

ولكنه ليس اعترافاً، برسوب الأطفال في البحر، ولا بفشل القناصة، في إثبات أن الطرف الثاني يساوي الصفر

الحرب ذات المعاليم والمجاهيل، والناشئة الذين يشمّون رائحة الخبز قبل الذهاب إلى الخنادق رافعين الرايات التي رسمتها شركات النفط

لن يكتبوا عنا شيئاً بعد الحرب، ولن تؤخذ الحكمة من دمائنا لتكتب على الجدران.

هذه الحرب الفاتنة، الحرب التي مشطت شعرها في الليل. الحرب التي سلّمتنا شهادات المدرسة بدرجات عالية، نجح فيها الجميع.

بين قوسين

العاصفة التي تسبق الهدوء

ما زالت هنا

تأكل وتشـرب وتناقش العابرين. في الوقت الذي كالسـيف،

والوطن الذي على الشجرة، وليس في اليد

العاصفة التي أفسدت مقثاة البطيخ
لم تبقِ شيئاً للثعالب
ولا لقارئي نصوص الحكمة

النصوص المنتظرة في الثلاجات
ذابت سريعاً.

الهدوء الذي تسبقه العاصفة
ينتظرنا على الطرف الآخر من الموت

هناك
سنقف طويلاً على رجل واحدة
لأننا تركنا العاصفة من دون طعام
ليوم واحد

الهدوء الذي نحتاجه لننشر هذا البكاء
على سطح البيت كي ينشف

أيّ حزنٍ يبعث المطر

النقاط التي وضعناها على الحروف
لم تضف شيئاً

كان المعنى نائماً
حين جادت غيوم نيسان بالمطر

*

تبلّلت الكلمات جميعها
حتى السبورة القديمة السوداء
أغرقها السيل
والمعنى الذي كان في الشتاء.. توحّش فجأةً

*

الطلاب الذين نالوا صــفراً في الإملاء كانوا يبكون. دفـاتر الإملاء ظلّت معهم الأقلام، الطباشــير.. ترســم نقاطاً فوق كل حرف. لا معلم يلجمها. لا طلاب يحمون دفـاترهم من سطوته.

المطر كان يكتب بسرعة
وأيضاً رسم سيولاً وبِرَكًا
وبعض الذعر في الماشية

*

قال الرجل الكهل: لم يكن الورق جيداً ليظلّ النصّ مكانه

زوجته قالت: الحبر هو الذي لم يكن جيداً

ولكن؛

الأقلام والطباشير
والمعلم الوحيد في القرية
والطلبة بثياب المدرسة التي ينشّفونها الآن
والعجوز التي تعلف الدواب بمشقة
والرجل الباحث عن بعض الوقود للمدفأة
حتى الزرازير القريبة من البيادر
والحمار الذي لم يفطن إليه أحد
والسيارة الوحيدة العابرة في التاسعة مساء بضوء شحيح

والبنت الشابة التي تتعلم الخبز على الصاج
وقد أتلف المطر كحلها

والصبيّ
مطارداً زرزورةً مهيضة الجناح

الصبيّ الذي هرب من المدرسة
بعد أن ضربه المعلّم بقسوة
لأنه لايجيد كتابة (تلألأ المتلألئون)

وتلك المرأة التي عاد زوجها من بيروت
وتبحث له عن بيض عند جارتها العجوز

يومها
انتظرنا الورق كي ينشف
لنتعرّف الحروف من جديد
وانتظرنا الأرض لتجفّ
وكذلك ثياب القتيل
وانتظرنا كلّ غيمٍ عابر ليمرّ
وكلّ ماء منبثق كي يغور

وقالت العجوز وهي تقرض المرأة خمس بيضات: هذا المطر ذئب غشيم

وضحكتا معاً

ثم بكتا.

ومنذ المطر

لم نعد نجيد القراءة

لم نعثر على حروف تماثل حروفنا القديمة

فكلّ الحروف صارت منقوطة.

بتوقيت الحرب

انظرْ؛ إنّها الرابعة فجرًا بتوقيت ســوريا؛ ســتســتيقظ الآن أمهات كثيرات، ليصنعن الخبز، أو ليوقظن الأمل في أطفال يفهمون الحرب بطريقة مختلفة.

هي الآن السابعة بتوقيت وسط آسيا؛ السهوب الآن تحتفل بالشمس الجديدة. أمهات كثيرات يركض وراء الماشية؛ من أجل أطفال لا يفهمون الحرب أساسًا.

هي الآن العاشرة بتوقيت شرق آسيا؛ المدارس الآن تعرض صــورًا عن الحرب في البلاد التي لا نفهمها، أقصــد لم نعد نفهمها.

.هي الآن الســادســة مســاء؛ بتوقيت U S A، الشــمس التي تغرب هناك تخبرهم بالتأكيد؛ كم يلزم من البكاء ليفهموا الحرب، ولكن لا بأس بلعبة «بلاي ســتيشــن» يعرف الأولاد من خلالها معنى الحرب.

هي الرابعة الآن، بعد قليل ســـأوقظ أولادي، وأدفعهم إلى المدارس، مثل قائد كهل، يدفع جنوده إلى الحرب.

رحلة الشتاء والصيف

وكان على ظهره سـحابةٌ خضـراء، وانتظرنا أن يعطينا منها شـيئًا، ولكنّـه مرّ، ولم يلقِ إلينـا بـالًا، فقلنـا: لعلّـه اليوم مريض، ولكنّه مرّ.

وحين وصل البريّة

نثر ها

فصارت غابة

ثمّ غاب.

وانتظرنا عودته حين عادت الشـمس، فعاد، وكشـمةٌ من الغيم على ظهره، ولم ينفحنا ولو بنظرة، وحين بلغ الوادي، نثر منها شيئًا، فكان السيل، فغاب، وقلنا لعلّه غرق.

وعاد وفي يده السحابة صوفةٌ خضراء لا تكفي لنشتري فيه من بيّاع السلك والعلك، ولكنّه أخضر، فربّما استرضينا به

حبيبةً، أو استعدنا به سُبُّورةً خضراء، أو غزالًا عائدًا من الغابة ذاتها. ولكنّه لم يلقِ لنا بالًا، ومرّ.

وبحثنا عنه في الغابة، وبحثنا في النهر، وكتبنا عنه في السبّورة، وقلّدنا صوته أمام الحبيبة، وناديناه أن يعود وقيل لنا، لم يعد من السحابة الخضراء شيء، وقيل لنا: إنّه ينوء بسحابة حمراء ولعلّها خنقته، وقلنا لحبيباتنا إنهم يكذبون.

وقبل أن يبلغ القمر المحاق، نرفع إليه أكفّنا: أين سحابتنا الخضراء، فيختفي القمر، فنعاتب الليل. وقال العابرون سيمرّ، وقلنا لم يلقِ إلينا بالًا، وقلنا: سنعاتبه إذا جاء، وقلنا سنغمس أصابعنا بالعهن الأخضر، لنكتب أسماءنا، وقلنا: سنرسمه إذا جاء المدّ، وتركتنا السفينة، سنرسمه بحرًا أخضر، وجزيرة نائمة.

الرجل الذي مرّ وعلى كتفه سحابة خضراء، ولم يلتفت إلينا، قال كثيرًا، ولم نفطن إلى كلامه الذي صار غابة ونهرًا. نحن الذين شغلتنا الحرب عن تحيته، وحضرته.

الرجل الذي لم نره
الرجل الذي رأيناه

على أنّ قرب الدّار

الهدنة اليتيمة بيني وبين الطريق.. أعدّ لها جيداً، بذكريات، وأغانٍ يابســة، أثرُد الخبز بطيّة قمر دين مبتلّة، كنت أحلمُ بموتٍ يليقُ بولدٍ ضالّ، كما في الأفلام، وبهدنة عادلة، حيث المحطات المليئة بلفّات الكباب.

أحتال جيداً لنصــرٍ عابر، أحوك المراثي بأصــابعي.. كلما عثرت أغنية في العراق ســال موتٌ هنا، أنا قبرٌ يتســع لهذه الحرب، بيني وبين الطريق هدنةٌ تؤجلها الريح، بيني وبينكِ قطار يقف ثلاث ســاعات في دير الزور لأنّ العجاج يقرأ خطبته الأخيرة على الحشد.

وطني هو أبي، صــورته ظلّت ملء المكان، بين ســجاجيد معلّقة على جدارٍ في بيت طيني، تركت وطني، لكنّ عيني أبي تنظران إليّ من هناك، كنت أســلّم عليه كلما مررت من

هناك في زيارتي السنوية، الآن أكتفي بإغماضة عيني، لأراه، كما تقول أغنية أم كلثوم، هذا ما يلزمني قبل الهدنة تماماً، شاهدٌ كأبي يُلقي على السلام.

أناور بين حبال الغسيل، هذا ما يحدث يوم الجمعة، ليلة الجمعة بالتحديد، شهداء يتأرجحون ويطيرون في هواء أبريل، لولا الملاقط الخشبية لخطفت الريح الشهداء بعيداً إلى أرض ذات شجر وأنهار، وهناك كنت أناور بأسى، لأظفر بإذنٍ من أمّي كي ألعب مع فريق القرية.

تمرّ الحرب، سيبقى منا مندسّون وشبّيحة وشهود عيان وانتحاريون وساسة، بالتأكيد سيحصد النصرَ العاثر شبابٌ يتسكّعون يغنّون أمام شارع مهجور مليء بالأفاعي، سيبقى ولدٌ بعينين غائمتين، سيلمّ إنياس المدن الباقية في كيس من ورق، ويرسلها في طرد بريدي إلى كوكب آخر.

لن يسمع أحد هذا العواء، هذه هدنة تهبط في الحلم على درجٍ متهالك، هذا الدرج لم يصنعه حدادّو الصناعية في القامشلي، هذا الدرج يحتاج إلى هدنة، لنشدّه جيّدًا.

حينما في البريّة

ثمة شاعر
قضى طفولته أعلى الجبل
لم يتعلّم غير عشرين صورة
لا تصلح للمعلقات العربية
ولا لقصائد «الدو بيت» الفارسية
ولا حتّى لقصائد الهايكو

تعلّم أنّ الشمس أب
وأنّ القمر أمّ
الشجرة أخ
الصخرة جوع
النقيق ملل

الطيور أصدقاء

حين مات أبوه
رسم للشمس عينين مغمضتين

وحين مرضت أمّه
أسند القمر إلى الجبل

حين جاع
دفع الصخرة بقوة
كي تتدحرج من علُ

بعد سنين

أحبّ الشاعر
راعيةً ماعزٍ عابرة

جمع حروفه العشرين
الشمس والقمر والصخرة والضفدع
اصطاد طيورًا مسكينة
اقتطع أغصانًا من شجرة
حَفن ماءً من نهرٍ
كان يعني له النوم

بحروفه العشرين
أراد أن يعبّر للراعية
أنّها أبوه وأمّه وإخوته وأصدقاؤه
ولكنه لا يعرف الكلمة
التي تعبّر وحدها عن الحبّ

يقول المعلّم في خاتمة الرواية
الحبّ مجموع الصور التي رسمها الشاعر
الولد النزق أضاف بعض الضفادع
أولاد آخرون أضافوا بضعة أحجار

الشاعر
أحبّ راعيةً
لا تسمعُ غير ثغاء ماعزها

مرآة

قالت لي المرأة
إذا لم تمتلك روح الكتابة
فلا تيأس

المرأة التي شربت معها الشاي في رواية قديمة

ربّما كانت لماركيز

أو خيري شلبي.

كنت يومها أهتمّ بالأثر الذي تتركه الأنثى

في صحراء قاحلة

وكانت الحرب على باب النهايات

أو هكذا توهّمت

وكان الممرّ الذي مشينا فيه

وافر الهواء.

جيران

أعرفُ صيَّادًا في قريةٍ بعيدة
يأتي إلى بيته آخر النهار
ينزل عن ظهر حصانِه
وتتبعه طيور ذابلة
خجلة
لا تنظر إلينا أبدًا
زرازير
حمام برّي
حجل خائف
وعصافير أحيانًا
عصافير خرساء
تنظر إلى الأرض

يترجّل الصيّاد
لا يحضن أولاده
لا يقبّل امرأته
لا يلقي إلينا حتى نظرة محايدة
نحن الأولاد المصابين بالفضول
حتى إنّنا لا نتذكّر صوته
يفتح باب الحوش بهدوء
يتبعه حصانه
وكتيبة الطيور الملمومة
في خُرْجٍ نظيف

في المدرسة نسأل ابنه عن العصافير
عن رجفة الزرزور في الشتاء
عن حزن الدوري في الأصابيح
عن لون الحجل البرّي
لكنّ المسكين لا يجيب
وأخوه الأصغر كذلك
لا يعرف
ما الفرق بين «الصعو» والعصافير العاديّة
وأخته الكبرى
خرساء

العائلة التي لم تتعلّم «منطق الطير»
لأن العصافير لا تقفز قرب كأس الشاي
لا ترفرف فوق البيت
لكنهم يمتلكون بندقية صيد
تثرثر في الشتاء
تثرثر في جميع الفصول.. تقريبًا

مباراة

تمسّك بالحياة
كأنّك قلم رصاص
كلّما طاردته «البرّاية»
دار حول نفسه
مثل درويش
وكتب لله
«عن كلّ شي» *

تمسّك بالموت
كأنّك قلم رصاص
كلّما طارده الموت
لَبَدَ
واتجه إلى الممحاة
حاضنته الأبديّة

قلم الرصاص الوديع
قلم الرصاص القاتل

في أيادي كتّاب المحكمة
والرسّامين
ونجّاري السوق
(أقصد وراء آذانهم)
قلم الرصاص الهادئ
في يد البنت التي ترسم الوردة
قلم الرصاص المسكين
في يد طفل في الصفّ الأول
قلم الرصاص البردان
في جوف دكّان قديم

أحبّ الموت أحيانًا
مثل قلمٍ لم يكمل الفكرة
فترجّى من المبراة أن تمنحه آخر سنتمتر منه
ليقول كلمته ويمضي

أحبّ الحياة أحيانًا
مثل قلم رصاص
ظلّ في يد البنت
بعد زهرة وشمس
وظلال كثيرة

دعكتها بإبهامها
الليل باردٌ
في دفتر الطفل
الليل دافئ
في دفتر الرسم
الليل صاخب
في المنشرة
الليل وغدٌ دائمًا
في جوف دبّابة
تمحو بعنف
مستشفى قديمًا
تمسك بالحياة

ولكن احذر
«مبراة» الأيّام
تركض خلفك

*- عبارة لطفل سوري قبل وفاته في أثناء الثورة

كن جميلًا

في الخريف يبكي الشجر
تكنس الريح دموعه فوق الأرصفة

في الشتاء تبكي الغيوم
الأرض منشفة صغيرة
هكذا قرأنا في الكتب

في الربيع يبكي العاشق
ويكتب الشعر.

في الصيف تبكي أشجار الفاكهة
ملأت دموعها الصناديق والسلال

بنصف راتبه
اشترى الموظف دموعاً مختلفة
من سوق الخضرة

في الليل تبكي الطائرات
تبكي الطائرات جيداً في الليل
الموظف العائد إلى بيته
وجد أولاده ينشّفون دمع الطائرة

على حين عاتبت الشباب

القصيدة كانت هناك:

حقل الشعير

آخر نيسان

والطفل ابن السابعة

بقدمين حافيتين

وراء قطاةٍ خائفة

لو كنت أدري أن القصيدة هناك

ربّما اشتريت فخًّا بليرة سورية

وألقمته حبّة حنطة واحدة

وانتظرت

ولكنّي على أيّ حال انتظرت
واشترى لي أبي حذاءً
وخبأت لي أمّي الزبدة والدبس
وأهداني معلّمي ديوان شعر

انتظرت

وخطّ شاربي
وعرفت معنى الكحل في العين
والصمت في السفر

لم تكن قصيدة
حدّثتني العرّافة وهي تنثر الحجارة
تبحث لي عن فألي

لم تكن قصيدة
قالت أمّي وهي تزوّج آخر أبناءها

حقل الشعير
الذي أراه أمامي
بالدرب الضيّق

الذي لا يتسع لاثنين
بالغيمة الغريبة آخر نيسان

هكذا كلّما تذكرته
هززْتُ قبضتي في وجه الريح
وكأني أمسك به
باحثًا عن قدمين حافيتين
وقصيدة بعيدة

ثم أفتح يدي
لا القصيدة
ولا نيسان
ولا أنا
منذ ولدت هذه الحرب
وأنا أمشي
في درب الذاكرة الضيق
الدرب الذي لا يتسع لاثنين.

اركض برجلك

ثلاثة
لا تقبل القسمة على اثنين:
الغربة والشتاء والمرض
لكنّها تتقسّم أحيانًا
إلى شرائح مدوّرة
أو كتابة بلون العشب

يقول صديقي
نحن مرضى وعلى سفر
وهو يفرك يديه المقرورتين
أوَّلَما يدخل البيت
قبل أن يتفقّد بريده
في هاتفه الجوّال
ويمدّ يديه إلى مدفأةٍ
في الذاكرة
- قد نموت في هذه الأرض

تمتم في هدوء
ولم تسعفه لحظة حزن واحدة
كي يترنّم بأغنية ما

يأتي الشتاء أوّلًا
لنكتشف الغرباء
قال المعلم
يأتي المرض قبلها
قال صديقي
الممدّدون على الأسرّة الباردة
يدركون هذا
المستشفيات شتاء

هناك
كنت أقسم وقتي
بين زيارة المرضى
والسلام على العساكر
العائدين من الجبهة
تلمع الغربة في عيون العساكر
قبل أن تنبت لحاهم جيّدًا
فيما الجدّ الواهن يعنٌّ بانتظام
وتداعبه عجوز من حبّاباتي:
«غزال غزال» *

ربّما لن نلتقي
يقول صديقي

ولكن..
لا وقت للحزن كي نبكي معًا
فأتدارك علامة الحزن الصغيرة
قبل أن تستوي آخر السطر
وأتجاهل كلماته

أكون قد قسوت قليلًا
قسوت إلى حدٍّ ما
ولكنّ صديقي سيكتب بعد وقت وخيبة.
- الحمد لله.. ماشي الحال

حين أنظر إلى صفحته
لا أجرؤ على النظر إلى صورته الجديدة
لن أقول: تغيّرت كثيرًا
أو: شيّبنا يا صاحبي
سأهرب إلى الأمام
فأنا.. لست صديقًا جيّدًا
كي يبكي على كتفي صديق غائب
لست صديقًا جيّدًا
لأوقظ «السوالف» القديمة
معه
المعلّم الذي فيّ

يقول إنّ الشتاء حالٌ

- الغرباء تمييز

قال صديقي

أو هكذا تخيّلت

في الماضي

كنت أحبّ النحوَ

ولكن الإعراب بات صعبًا

صعبًا وشاقًّا

وأنا أرى الفاعل المسكين

يلتهم «صندويشة فلافل»

جانب المضاف إليه

كان السوريون

قد «زرّوا البوط، وغرّبوا»

في الشتاء الذي يتجدّد

وكنّا نلوّح من بعيد

للبلاد التي تعنُّ:

غزال غزال

- غزال غزال: تعبير فراتي عند عيادة المرضى

عُد إلينا

كان أبي رجلًا من حَور
ولم يكن غريبًا أن يمشي
بينما العصافير
مكانها

عاد أبي إلى البيت كثيرًا
في الشتاء
والربيع
والصيف
أخضر حزينًا

كان يأمرنا بالغناء
وكنّا نستحي أن نغنّي
فظهر أبي مطعّمٌ بالفؤوس
هذا ما قالته أمّي
ولكنّ رجل الحور رحل
في الخريف التالي
أقصد آخر الخريف

حدث هذا من زمان
وكنّا أحيانًا نتمنّى أن يعود أبي
ليرانا نغنّي
لكلّ فأسٍ عائدٍ
من الغابة.

بتوقيت الغابة

الدائرة رغيف
قال ابن الخامسة
الدائرة شمس
قال الراعي في الجبل
الدائرة قمر
قال العاشق
الدائرة دولاب
قال سائق الباص

الدائرة بئر
قال أبناء يعقوب

لا تخطف قوسًا ساخنًا
سيصرخ الولد
لا تفقأ عين المركز
سينام الراعي
لا تمحُ قُطر الليل
سيهيم العاشق
لا تضع مطبّات مثلثة
سيتعطّل الباص

ولكن
دعِ الأقواس
دع المركز
في ذلك البئر الناشف
لعلّ الذئاب
تترك الدائرة

أصدق أنباءً

في طرف القرية نبتَ حبرٌ طويل، أقصـــد في طرف الحقل، أقصـــد بينهما. حبرٌ له ورقٌ، وغصـــون، ووردةٌ تطلع مرّة في السنة، وقيل وردة الحبر مجنونة، قد يراها القارئ العاشق في ورقة «مفكّرة الصباح»، وقد تراها أمّ في عينَي ابنها.

ولكن هل تلتهم النار نبتة الحبر؟ سألت للشيخ، فقال لي: لم يركض الحبر؟ وتبادلنا نظرتين، ليس فيهما إجابة، وكنت أطرد الحبر عن حقلي، كما يفعل أهلنا بنبتة النجيل حين يخنق القطن. ولكنّه حبر كثير، كثير يا بنيّ، قالت أمّي، فوقفت، أســتطلع الزرع والطفولة التي لم تنتظر عيدًا لأوّلنا، وقلت هي النار.

في ليلةِ القدر، سالت قصيدة في عروق الشجرة، وسمّت كلّ طيرٍ يشرب من نسغها، وكلّ نحلة تقرصها من خدّها، وقلت: لعلّي أقرأ فيها ومنها. أنا السوريّ المنتظِر..

وما يسطرون

كنت طاءً صغيرةً في لفافةٍ من قماش، أمّي لا تكاد تراني، حين هملت عين السماء، واقترب القطيع من النهر، لم أبحث عن اسمٍ لي، ولم أسافر للعمل في بيروت. هناك يتعثّر العابرون بالبحر والسفن وشارع الحمرا.

//

يومها انزلقت من يد خطّاط، يوم استعصيت على الخطوط جميعها، ولذت بما يشبه بيضة نعامة، كاد الرمل أن يفضحني، ولم أبحث عن اسمٍ لي، لم أكن طاء الطفل لأركض وراء بائعي العنب على ظهور حميرهم المتعبة في براري الشمال، لم أكن طاء الطريق، لأشيل عنه خطا الغزاة بخيولٍ حفرت في كتب التاريخ فصولًا وفصولًا، لم أكن طاء الطريدة لأركض بقلب أمّ، وعين ذئب.

كنت طاءً فحسب، طريًّا مثل زبدةِ «حبّابتي» في الثامنة صباحًا، رشيقًا في شفتي الشيخ وهو يقرأ «والتين والزيتون وطور سينين» فأحسب أن ذلك الشجر الذي لم أعرفه في البريّة يحتمل اسمي.

لم أبحث عن النجاة ولكنّني طرت، ولم أبحث عن قشّةٍ ولكنّي طفوت، أنا حارس اللغة الغريب، أصطاد لأولادي في براري النصوص، أكمن للموت والأفكار والحرب، لا شباك لديّ تكفي لأقول لكم إن الحرب انتهت، ولا سلاقيّ تتبعني خلف ذكرياتٍ لا تتعب.

ربّما كنت طاء الطارئ والطارق وأنا أحذف المتاح، وأنوء بكلكل امرئ القيس، حين قال لي أستاذي في الجامعة أعرب البيت التالي، ولم يكن في يدي غير حروف جرّ نثرتها على ذلك البيت، كما تنثر أمّي الملح فوق مفركّة البطاطا.

حين تقولين لي هو نصّ، محض نصّ، فلن أزعل كثيرًا، هل هي طاء الإحباط، أقول لكِ لم أحبط كثيرًا، لأنّي لم أعوّل على شـيء، كنّا أصـدقاء ولكنّ الحرب ابنة كلب عضّـتنا جميعًا، فهلكت فينا أشـياء كثيرة، ولكنّ الحرب منحتنا أكثر من لعبة، لنملأ الفراغات بالكلمات المناسبة.

حين تقولين إنه نصّ، ولكنّه طاعنٌ في العصـيان، فلن أجد في يديّ ما يكفي لأصـفّق، سـأمتحن الراوي ليكتب مقدّمة تناسـب فرحًا سـوريًّا متخيّلًا، المقدّمات ضـرورة، ولكنّ الروايات تموت حين تختصـم طاء البطل، وطاء الوطن. حينها سـيتمكّن منّي النعاس، وأحلم بكِ، تشـبهين حلب، بحاراتها الجديدة، التي استضـافت قرانا البعيدة، وسلّمت أهلها فؤوس النجارة، ومساحي عمّال الإسمنت.

كنت طاءً فحسـب، حين يعود المؤلّف من رحلته، فقولي إنّهم غرّبوا، وصار بيننا جبال وبحور، لا تنخدعي بصورهم، وحسـابـاتهم على الفيس، وحكـايـاتهم في اليوتيوب، هم بعيدون، وأنتِ هنا تبحثين عن طائي، التي أبحث معكِ عنها.

يد العاشق

حين كنت طفلًا
كان الشوق يحلّق
كأن أطير للقاء جدّي
القادم من البرّيّة

فيما بعد
صار الشوق حصانًا
يركض في الربيع
ويقود العربة في الصيف

حين هاجرت إلى الصحراء
أمسى الشوق جملًا
حَمَلًا صبورًا
ويحتمل العطش
ست سنين مثلًا
لم أشرب الماء
من كفّ أمّي

والآن ثمّة فراشات خفيفة
تحلّق أيضًا
وترتّب شوقًا مزمنًا
لشيءٍ ما
ربّما كان فطور الشاي
والكعك المدوّر

مرّات كثيرة
أحسب أن الفرشات
هي ذاتها
ريش الطائر الذي تركته

مكاتيب

المطر رسالة
الغيمة ظرف
فوق قريتنا جبل
يخطف البريد
من الريح النزقة

أولادنا المغتربون
في جوف البحر
عاتبون

أين تذهب الريح
بدموعنا؟

بل الدّهر، لا أنتِ

ذلكَ أنّكِ لم تأتي،

ولم يأتِ المساءُ معك، ولا كؤوس الشاي، ولا الضيوف، ولا الأسئلة، ولا صخب الغيم في نيسانٍ عامرٍ بالفوضى.

ذلك؛

أنّ الساقية لم تتسع للسيل، والشاي لم يكفِ للتعليلة، وإذاعة لندن شوّشت كثيرًا، والقصيدة التي حسبت أنّها رائعة تهشّمت حين قرأها صديقٌ قديم.

ذلك..

لا تظنّي أنّني نسـيـت، ولا تظنّي أنّي تـذكّرت، شـربـت من عشـرات.. مئات الكؤوس، وظلّت كأس الشـاي الفرنسـيّة بأهلّتها الخمسة، تستند إلى إبهامي وسبّابتي، وتابعتُ مئات.. آلاف النشـرات، ومـا زالـت أجراس بيغ بن تملأ رأسـي بضـوضـاء وصـور. ولكنّي نسـيت أيضًـا الطفل الذي قاد الأغنام إلى أمّه لتحلبها عند المساء.

ذلك أنّي أريد أن أنشر حَبّ الذكريات من جديد؛
لا لأصنع برغلًا
لا لأطحن ذكرياتي
لا لأدّخرها مونةً

كلّما مضيت شـوطًا في الطريق، بعدت بيننا المسـافة، وكلّما ابتعدتُ اقتربتِ، وكلّما ناء شـيءٌ فيّ، دنا شـيءٌ منكِ، وكلّما أشرقت ضحكتكِ.. بكيت

ذلك أنّك كنتِ معي
ذلكَ أنّك ما زلتِ معي

فليكن؛

خذي أيّامَكِ البيضاء

من فروتي

صوتَك النّاي
من التعاليل

رائحتَك الحنّاء
من صباحٍ بعيد

فليكن؛

أصابعُك التي ودّعتني
غيماتك التي تبعثرت
أمطارك التي انتظرت

أنا الآن راعٍ ضيّع قطيعه في تخوم الشمال
لا ذئبَ؛ لأسأله عن الماعز خلف الجبال
لا قصّاب لأسأله عن وليمةٍ استدعَوه إليها
ولا مرياعَ صدّيقًا، لم يخنق أجراسه

فليكن

فليكن؛
فروتي الآن سوداء تمامًا
التعاليل التي تنتظرني
بذكريات شحيحة
وذلك الصباح
بات صخرة ملساء

ولو أنّكِ لم تكوني فتاتي؛ لكنتِ وطني
ولو أنّكِ لم تكوني وطني؛ لكنتِ أنا
وها أنا الآن أمسّد فروتي السوداء بعينين ابيضّتا من الحزن
وها أنا الآن أضيء سراج النفط الخافت في أمسيّة اليتيم
وها أنا الآن أرسم شجرة حنّاء صغيرة، وأسأل عنها أصابعكِ

وليكن؛
نيسان وحده يعرف كيف التفتّ إلى المطر
كي أراكِ
نيسان وحده يعرف كيف أغضيت عن المطر
كي آخذ أصابعك من الغيمة/ والبرد/ والحنّاء/ والناي.
لأدسّها في فروة ذكرياتي العنيدة

وليكن؛

وجهكِ نجمتي البعيدة
صبحُكِ فرَسي المتعبة
لياليك دفتري

وليكن؛
بعد قليل سيمضي نيسان
بعد قليل ستغادر الأمطار
وتبقين أنت
عُشبةً سعيدة
في حقلٍ جافّ
غيمةً وحيدة
لم تمطر
لم ترحل جهة الشرق
لم تكن «شقراء الهدب»
هناك، جهة الشمال، في النهار، والليل
في «القمرة» وفي الظلمة

هنا أيضًا في شتاء قلبي
الغيمة ذاتها

وبالأمس أمطرت

جاءنا مطر كثير
وبارك لي جاري مجيء الحيا
وكانت تمطر في الصباح أيضًا
ولكنِّي خفت على الغيمة الوحيدة
التي في الشمال
وتدلّني جيّدًا على دمع أمّي
والبِركة التي كنا نقطعها
بأحذية الشتاء

غيمة وحيدة
ظلّت هناك
أشير بها إلى الشمال
رجوتها ألّا تذوب
في مطر الأمس.

كأنّه ليس هو

كان أخي صغيرًا
يوم ربّعنا في الشمال

حين ذهب إلى المدرسة
صرنا جميعًا في الصفّ الأوّل
نهجّئ الحروف
ونبري الأقلام بشراهة
وننشد: «ماما ماما يا أنغاما»

أ
خ
ي

الذي جرى في الحوش
الذي سافر إلى الحرب
ولم يعد
هويته عادت
بكاء زملائه عاد مع الهويّة
والرجل الغريب الذي يشبهه عاد

كلهم كانوا يضحكون
وباركوا له «التسريح»
ولكنه ليس أخي
هذا الذي في وجهه شارب كبير
في جبهته وشم محايد
وفي يده آثار دم

وحين غادَرْنا البيت
لم نطلب منه أن يقسّم علينا ضحكته
ولم يفعل

قبر مالك

إذا مرّ «الهوا الغربي» أيقِظْني
إذا جاء أبي من النوم أيقِظْني
يا أخي
إذا عادت أمّي من بيت جدّي
أيقِظْني
أنا نائم وحزين
وبيتي ليس فيه أحلام
ولم أعثر بعد
على «خرجّيتي» التي ضيعتها في النّضد

بالأمس مرّ طائر غريب
طار قليلًا
ولم «يوكّر»
ولكنّه ظلّ في السماء
مثل شدّة صارمة
فوق حرفٍ رقيق
بالأمس فقط
تذكّرت أنّي لم آخذ ما يكفي من الكشك
ولا «شجيج الباميا»
لأنسى الشتاء
وبالأمس أيضًا
حامت شدّة عابثة في الأفق
ثمّ ذابت تمامًا
وبقيت أهجّئ اسمك

وتعرف أنّني نسيت المقلاع
لو كان معي لرميت به الطائر
وأضعت وقتًا قليلًا في
تذكّر جدارٍ البيت
كلّما غادرت شجرة إلى المنفى
وسألتها:
هل رأيتِ أخي؟

لم نكن مطرًا
حين سال البكاء
وحين ذهب أبي إلى النوم
ولا حين «سيّرت» أمّي
كنا شتاءً كبيرًا
ملأ جوف تشرين

ولكنّ «الهوا الغربي»
سيأتي
بالله عليك بالله عليك
أيقظني يا أخي

نهايات

كان أيلول يتعشّى معنا
يمدّ يده بأدب
ويقول باسم الله
مثل ولدٍ يتيم
وخائف
ويدرك معنى أنّه يتيم

لا يتأبّى
لم يكن نهمًا
ولا متطلّبًا
لم يحتجّ لأنّ البرغل من دون ملح
ولم يحتجّ لأنّ الصغار تخاطفوا العنب
ولم يحتجّ لأنّ مخلّل المكبوس كان حادًّا

كلّما غربت الشمس
وقف أمام الباب
فنناديه:
تعال
فيأتي، وفي جيبه أيامه القليلة
لا أمّ كي تواريه عن الثعالب
الثعالب التي لم تبق دجاجة في الجوار
الثعالب التي مزقت الروزنانة
يومًا يومًا
لا أب يهرب به إلى مدينة بعيدة
وبالأمس
أقصد ذلك الأمس البعيد
طردته غيمة عابرة
حرمته حصته
من الظهيرة
والدالية
والحزن الذي في الأغنية

لا أظنّ حبابتي
طردته
لا أظنّ أبي أقنعه بالسفر

إلى المدينة
ليأتيا معًا بدبس العنب
وثياب الشيت
وأخبار المدن التي لا نعرفها

منذ يومين وأنا أبحث عنه
منذ سنين وأنا أهرب منه

ولدٌ، شاحبٌ، وطويلٌ، وكان يأكل معنا على العشاء، ويستحي كثيرًا، ولم أجد حبّابتي لأسألها إن كانت أغضبته، ولا أمّي لتصنع لنا مطبّق الباذنجان على العشاء وتترك الأقماع بسواعدها الغضّة لنأكلها وكأنّها دجاجاتنا التي أفنتها الثعالب لم أجد أبي لأطلب منه أن يترك أيلول معنا، ننتظر معًا «خبز الطابونة» والدبس.

ولم نكن غير طفلين
لعبا معًا
وخافا من اقتراب المدرسة
وخافا من اقتراب الشتاء
وخافا من الغد

محطّة

الأسئلة
فراشات غبيّة
تكتب اسمها بعناد
على سبورة النار

الخدعة ذاتها
الحبر ذاته
كلّما مدّ الليل جناحيه
ركضنا إلى جهات ضوء
غريبة

الفراشات جميلة
في النهار
الأسئلة جميلة
قبل أن يطلقها الولد
دفعة واحدة
من رشّاش صغير

والآن ستقولين:
أين البيت الذين خبّأنا فيه الجواب؟
قبل أن تلامسي زجاجة الفانوس
وأنت تعلمين
أنّ البيت صار فكرةً غامضة
لا أريد أن أحترق بها.

غيمة

هذا مساء معتلّ
يمكن لأنّ آب يعتذر
ربّما لأنّ الأب العائد
بولده على كتفه
يعتذر أيضًا
ربّما لأنّ الدوابّ
لم تعد من المرعى بعد

خمسون يومًا ويأتي المطر
خمسون وردةً ويعتذر العاشق
خمسون ليرة قديمة تعيدني
إلى الماء من كفّيها
والقطن الأبيض في حقول تشرين

البردُ حيث يداكِ
تنسحبان إلى جيب معطفكِ
المطر حيثُ مظلّتُكِ
دائرة عالية

الجِداء الصغيرة
تعبث بذاكرتي
لم أقل إنّه مساء يعتذر
ولكنّ شمس ذكرياتي
غائبة

بيدين
تركتا المعطف
ورسمتا سحابات ومطرًا وشتاءً وباصات وشوارع وحقولًا من القطن وحدودًا وأغاني وبساتين وآلات تسجيل تركض أغنيتها في شبابيك وجِداء تعبث في الدروب وأمّهات يشفقن من شمسٍ تغيب وأولادٍ لا يعودون إلى البيت.

ضع الفواصل قال معلمي
ولكن.. كيف أفصل بين يدين ترتجفان من البرد!
خمسون هلالًا ويعود العسكري من الحرب
خمسون ليرة قديمة لنشتري مونة الشهر

وأنتِ هناك
تطلّين على الشرق
عراقًا بعيدة
واقفة على أغنية لحميد منصور
تركضين إلى الغرب

معطفك الآن بلاد
يداك الآن سفينة
مظلّتك الآن
أغنية شاردة
نردّدها بأصواتنا النشاز

هذا مساء
أعاند فيه نشرات الأخبار
وأسأل عن يديكِ
تحملان المظلة في الشتاء
والوردة في الربيع
وكأس الشاي
في عصاري آب.

مرسى

وكأنّنا لم ننجُ
كأنّنا لم ننجُ تمامًا
ولا هبطنا من السفينةِ
أو لم نثبت أقدامنا على اليابسة
كأنّنا لم ننتظر دوابّنا تتكاثر
في البرّ الجديد
وقد انكشف عنه الماء

وها أنا أبحث عن خُلاصة الخوف في السفينة
وعن زبدة الفرحِ في الضحكات الغامرة
أوّلما هبطنا

عيناكِ نجمتاي حينما الليل سفينة غامضة
يداكِ مجدافاي
الماء الذي في عينيّ لم يعد يكفي
للبكاء على صديقٍ سينجو من الحياة بميتةٍ دافئة
الأصدقاء الذين سيموتون غرباء
الأصدقاء الذين سيعودون غرباء

عيناكِ الآن ملجأ الهابطين من السفينة
واحدًا واحدًا عددتهم
صاخبين/ عابثين/ مهلّلين
قافزين على عكازات (ذكراهم من المشي الطويل في سفينة متهالكة). واحدًا واحدًا
على أكتافهم سلالات الحنطة الحورانية
وشعير ماردين
والحمّام القلّاب الحلبيّ
وبذور الورد والملّيسا،
وشتلات الخوف والأمل.

واحدًا واحدًا

وحسبنا أنّ الطوفان غادر اليابسة، فركضنا في بريّة موحلة، وأطلقنا الطيور، و«لبثنا يومًا أو بعض يوم» واشتهينا الغناء، وقالت طفلةٌ هذه هي الجنّة، وقال كهلٌ هي الأرض، وغنّينا، واختبرنا أقدامنا في رقصٍ مديد، وقال الشاعر هي الجنّة، وقال الكهل هي الأرض.

واحدًا واحدًا

هبط قلبي، وبحث عنكِ، بحث طويلًا عنكِ، نثرت بذور الريحان، لكي تأتي، وبقيت وقتًا أحتسي الشاي وأقول لشتلة صغيرة عيناها نجمتاي، وبقيت، والشاي دليلي إلى عينيكِ، وقلت عندما تكبر الريحانة ستأتين، وسنحتسي الشاي معًا.

اثنين اثنين
كنّا، في السفينة، وقلتِ لي سنرسو
عيناك نجمتاي
ليل السفينة طويل
السماء بحر
الأرض بحر
الأعداء بحر

والأصدقاء بحر
يا ربّ، لقد تعبنا من الغرق، وموتانا الآن أشنيات هامدة.

هي الأرض
قالت الطفلة
والعاشق
والقاتل
والقتيل
هي الأرض
قال الكهل، ولكنّها الجنّة.

نصبت عيناي له شرَكًا

النوم جُبّة الدرويش
حين أفكّر في هذا
أذهب إلى النوم ومعي زوّادة خفيفة
لأنّي سأتغدّى مع أبي في الحلم

يحدث أحيانًا قليلة
أن أراه في غابة النوم
شربنا الشاي مرة واحدة
ولكني أخاف إن سألني
اطبخوا لي الكشك

ولا أحب أن أقول له
الراديو خربان
ولا الحروب زادت ضراوةً
ولا قريتك البعيدة
صارت تقع في دولة أخرى
ولا الموت صار متاحًا أكثر
اثنان من أصدقائي
ماتا في يوم واحد
كانا مثلي يتابعان الحرب
ويشربان الشاي

بعد قليل سأذهب إلى النوم
فربّما وجدتك يا أبي
في غابة النوم المضطرب
كي نتحدث قليلًا
لا أكثر

عتاب

الصديق القديم
ليس إشارة تعجب
أيها الفتى الغرّ
أيها القمر الذي سمّيناه وطن

الصديق القديم
عندي
لا يقع بعد نقطتين

حين مرّ الصديق القديم
وحدثني
وكان بيننا وسادتان
مثل نقطتين
حين تبادلنا الكلام
لا تقل لي ذاك صديقنا الذي مات
ولم يجد في هذا الشتاء
غير علامات ترقيم بائتة
وصديقين
يتبادلان
الموت
والبلاد
والأمل

كتاب العودة

خريفٌ، لا يضمّدهُ الخريفُ
وليلٌ، لا تدانيهِ الوصوفُ
أطلت الحزنَ بين يديهِ حتّى
تقدّمني إلى الورقِ الحفيفُ

ولمّا كنت أنتظر الخريف، لأحمل الضيفَ على المقام، والقصيدة على المكوث، ارتأيت أن أؤجّل نارَ الحكيم، وأقبسَ من جمر العابرين. العابرون وحدهم المرايا، العابرون وحدهم الخطايا، ومرّ حزيران ومرّ تمّوز ومرّ آب، وظلّ في الصاج رماد وفي الذاكرة بلاد، وقلت لعلّهم غيمة الأمس، وقلت لعلّهم شاطئ تركنا عنده متاعنا، تركنا عنده الشباب على حاله في الحقيبة التي ضاعت. كان الخريف

فتاة سمراء شابّة، ومتعافية، وبعمر سفينة، ولم نكن قد غرقنا بعد.

كفاني من غريبٍ ظلّ يسعى
لتألفه المنافي والحتوفُ

والغابات سمراء، والمدن سمراء، وريشة العازف سمراء، وصلاة الغريب سمراء، يا لأفريقيا التي في دم القصيدة، يا لآسيا العذبة في الضلوع، وليس من مطر مثل مطر أهْلِنا لأقول: «مطر مطر عاصي».

وليس من شتاء كشتائهم، ولا غيمٍ كـ«حين غيّمت فوق القامشلي» وحسبنا الغيمة ابتلعت المدينة، وخفنا، وتلمسنا ذواتنا، فوجدنا الحزن أسمر، والخوف أسم.

ولو أنّي قطفتُك ألف شمسٍ
لوافى دون طلعتها الكسوفُ

وحين أكتُبُكِ، فلا تثقي بي كثيرًا، ولا تحزّزي الأمل مثل «دبشيةٍ» شابّة، فالكتابة ليست سمراء دائمًا، والأصدقاء السُّمر رحلوا أيضًا، وأخاف أن أنده أسماءهم فيستفيقوا من الموت، والله، والله. وحين صبغنا المنفى، نادتنا المعلّمة: اين اللون الأسمر؟ بحثنا، وبكت أمّي لأنّها أقرضت الألوان ابن أختها الضرير، وبكت العاصفة، وبكى النمل الذي سرق

الحَبّ، وشرحت لنا المعلّمة أنّ السَّمار لونٌ مركّب، فمزجنا الأبيض والأسود، والأحمر والأخضر، والأزرق، وجميع الألوان، وبكينا، وبكت المعلمة

لعلّ زجاج عينيها صباحًا
يضيف إلى الحديقة ما يضيفُ
فترتكب السحابة خطّ كحلٍ
وتمضي، والندى ذنبٌ خفيفُ

وحين نموت يا ليلى، فسنعود إليكِ مطرًا نزقًا جاء من فرانكفورت، أو مطرًا مسكينًا وصل من الدوحة، أو عجاجة صغيرة لا تجد في الخريف من يرقص معها «المولويّة».

الوطن الآن صغير يا ليلى، قد ندسّه في مُكحلة
الوطن الآن كبير يا ليلى، قد نهجوه في قصيدة

وكأننا صعاليك في حكاية سمراء، ولم تكن الآنسة قد تزوجت بعد، ولم يكن البحر قد ارتكب كلّ هؤلاء الغرقى، حتى رآه الفراتيّون أسمر، فجلس مع الأسماك قليلًا، يغنيّ المولّيا.

ولم تكن «ذلولي» قد حَرَجت بعد، فأعدت للآنسة السمراء زوجها وأولادها من النصّ، وتركتهم يهربون إلى أَ لَا ما نيا، تاركين علبة الألوان.

وســتكتمل دورة المنفى، ويكتمل الوطن المُضــمر، والوطن المصـــاغ من الـدمع، والوطن المعـاد تـدويره من النســـاء الحزينات والعجيان وباعة الأمل والألبســة المســتعملة، وتكتمـل دورة الوطن البـاحـث عن إصــبع الألوان في فم السمكة التي هاجرت أيضًا.

وكان لا بدّ أن تعود المعلمة من المهجر، والأولاد من الموت، والخريف من سـنين عتيقة ونادت علينا المعلمة، وطالبتنا بـ الجلســة الصـحيّة فــ«تكتّفنا» أمامها في علب ســردين، ســـردين تركي، ســـردين يوناني، قبرصـــي، ليبي، مصـــري، تونسي، عبثنا أمامها وصرخت المعلمة التي تركت أولادها في النصّ، ونـادت علينـا، أحمـد، عبود، جوان، عـائشـــة، منصور، برصوم، ماريّا، فاتي، خضر.

ونـادت على الفتى الـذي نســينـا اســمـه بعـدمـا ترك علبـة السردين، فقلنا لها مات، فكتبت: حاضر.

لن تستطيع معي صبرا

حين أبصرني واقفاً ألتمس الغد، أجلسني إلى ناره وأطعمني من زاده، وقال: «إذا جادك الغيث» فانشر ماعونك، واسقِ الموتى، ولا تنتظر الربيع، الانتظار خوف، كن الربيع وإن خذلك الطير والناي

لا تهشّ بعصاك على كلّ فكرة سائبة، ولا تمُدّ يديك إلى كلّ شجرة، فليس كلّ الشجر أخضر، ولا كلّ الأفكار ثماراً.

لا تستعجل الفرار من السفينة، فربّ غريق خير من ناجٍ، وربّ خشبةٍ، خير من موجة.

ستأتي نار خضراء، فالتمسها. هناك أقم، واذبح شاتك، وأطعم ضيفك.

هناك تجدني

إذا رأيت أخاك قبيحاً؛ فاتّهم عينَيك. إذا جاء أخوك يصافحك فامدد يدك، فربما جاء في الغد وقد قُطعت يداه.

إذا بنيت بيتاً فلا تتخذ حجراً مسروقاً، ولا مثلوماً، ولا مهترئاً، اجمع حجارتك بهدوء.

هذا الليل طويل، طوبى لمن حمل سراجه، ولمن اهتدى بنجم، ولمن خبز لجائع قلبه.

وطوبى لمن وقف على الطلل ولم يبكِ.

وقال لي: هذا الليل طويل.. طويل.

أكحّل عيني التراجيديا بالإثمد، أنا قارئ النكبة منذ ألف جمل على باب المدينة، تلك البعيدة الآن، الصغيرة أكثر، والموحشة أكثر، والقريبة إليّ أكثر من أيّ وقتٍ مضى .

قفا نبكِ

ثماني رصاصات
نبتت في جدار الشقّة المقابلة
الشقة المهجورة منذ الحرب
منذ ثلاث سنوات بالضبط
الرصاصات المتناثرة بعناية
كمجموعة الدب الأكبر
لم تغادر الشقة منذ ثلاث سنوات
ثمانية تجويفات نبت مكانها عشب ضئيل
لكنّنا كنا نراه
ونحييه عن بعد

مجموعة الدب الأكبر الخضراء
هكذا قال أخي الكبير:
ها هو الموت ينجب العشب.

أمّي قالت: هؤلاء جيراننا عادوا من المخيّم.

وتذكرنا معاً:

الأب الأعرج
وزوجته السمينة
والبنت الكبرى؛ الممرضة
وصديقي رشيد طالب المعهد
وحسن لاعب الكرة الأوّل في الحارة
والتوأمان في الصفّ السابع
واشرت إلى ثقبين متجاورين
وآخر العنقود خديجة

بكينا قليلاً

وقالت أمّي:
«إيه ع الدنيا»
وصمتت

ثمانية محاصرين

مثبتون على الجدار
لم يكن ثمة خبز كافٍ لنطعمهم
ولا صابون ليغتسلوا
ولكنّنا كنّا نرشّ الماء
بعناية
فوق ثمانية ثقوب

قبل أن يأتي الشتاء
ويتدلّى العشب قليلاً
وأخي الذي يظلّ يسأل:
من يصدّق أن مشط رصاص
صار شعراً أخضر.
وطويلًا

الرّبابة

حين صنع البدويّ ربابته
أعطاه حصانٌ أصيل
شعرةً من ذيله
وأوصت غزالةٌ مغدورة
أن يمنحوه جلدها
في الطريق إلى الأغنية
قالت له الشجرة خذ غصنًا

*

هذه هي الربابة
حصان وغزالة وشجرة
عندما يغنّي جبار عكّار
«بيدي لأدهج البولاد»

فاعلم أن حصانًا يركض أمامه
وعندما يغنّي:
«يا ذيب ليش تعوي»
فاعلم أن الغزالة تحتجّ
وأن جلدها ينكمش في حضرة الغناء

ولكن
عندما يقول «هَلِي»
فاعلم أنّ جميع أشجار العالم
تبكي

عيسى الشيخ حسن

كاتب سوري مواليد 1965م، مقيم في الدوحة.

شاعر، وروائي. درس الأدب العربي في جامعة حلب. حصل على جائزة عبد الوهاب البياتي، والمركز الثالث في جائزة الشارقة للشعر.

صدر له:

مجموعات شعرية

أناشيد مبللة بالحزن (1998) شعر (دمشق: دار الجندي للنشر والتوزيع).

يا جبال أوبّي معه (2001) شعر (الشارقة: دائرة الثقافة والإعلام).

أمويون في حلم عباسي (2005) شعر (دمشق: دار الينابيع للنشر والتوزيع).

مروا عليّ (2015) شعر (دمشق: دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع).

حمام كثيف (2016) شعر (ميلانو: منشورات المتوسط).

الروايات

خربة الشيخ أحمد (2021) رواية (إسطنبول: دار موزاييك للدراسات والنشر). طبعة ثانية (2022) (دمشق: دار أرواد للطباعة والنشر).

العطشانة (2024) رواية (الإسكندرية – مالمو: جدار للثقافة والنشر).

سرديات رمضان (2022) نصوص (القاهرة: نوستالجيا للإعلام والترجمة والنشر).

مصباح الخميس (2026) أمالي فراتية (هالّه: دار نرد للنشر والتوزيع).





منذ وقت طويل لم يعد يزورني الأمل،
أنا الراعي التائه في البريّة، لا قطيع، ولا
مرعى، ولا مرياع أهتدي بجرسه إلى
الضوء، ولا حتى كلب يمنحني نباحه أُنسًا
عابرًا.

ISSA AL SHEIKH HASAN

LEAVE LIKE A SHIP

9 781291 552270

Jidar
Culture & Publishing